العودة إلى التية

بقلم : محمد عبد الحليم عبد الله

هناك بضعة كيلو مترات لا بد ان يشتبها لكي يصل الى الدار التي بات يحلم بها اربعين يوما ..

وكل شيء باستمرار عن الطرق الرئيسية لا لشيء الا ليختصر الطريق . والارض من حوله .. حقول .. وترع خلفه .. واشجار عراها الشتاء من اوراقها . اما السماء فقد بدت رحيمة لا سحاب ولا مطر . والشمس تلقي باشعتها على الارض التي بللتها امطار الاسبوع الماضي . كل شيء تحت قدميه المارتين في الاماكن التي لم تجف بعد .

كل طويلا يميل الى الانحناء شيئا ما . في وسطه حرام عريض من الصوف عرله وسحبه وشده على وسطه .. وكل يشعر بعد ان يشده ان جسمه اكثر تماسكا وقوة ... سريع المشية مع طوله يهرول بطريقة تدعو الى الانتباه . وقد شمر اذيال الجلباب بواسطة الحرام . ومشى على الارض الندية ليقطع بضعة كيلومترات الى الدار التي لم يرها منذ اربعين يوما ... وحده على الطريق .. على كتفه ملس يمثلها الى الكتف الاخرى اذا ما احس بالتعب وفي يد الملس الخشبية علق (جردل)

من الصاج يترنح مع المشية فيحدث صوتا من الممكن ان يكون مسليا لعابر السبيل ... صوتا معدنيا خاويا «ترن .. طن .. ترن .. طن » ليس بينه فرق كبير وبين الصوت المعدني الذي يسمعه من (مفصلة) شباكه حين تعانقه ريح الخماسين .

وبحركة غير ارادية الفى يده تحرك يد الملس من اليمين الى الشمال لكي يستمر صدور الصوت . وكان الطريق خاليا فاسبل عينيه . وسرى الغناء في اوصاله من الشمس المتحررة من كل سحاب فاحس كأنه في الحجرة العلوية في داره والشباك مفتوح فيها يعبث الاربز « ترن .. طن » والليلة ليلة سوق .. وصحن الدار قد عبق بروايح مختلفة اقلها رائحة التوابل من حلة تحلبه على الكانون جلست امامها زوجته ...

وعندما دخلت صورة زوجته في نطاق افكاره اخذ يحرك يد الملس ليسمع الصوت المعدني قويا حاسما مؤكدا انه في الدار وان ريح الخماسين تهز عليهما الشباك ...

لكنه ما لبث ان تنهد وفتح عينيه ... كان كل شيء من حوله كما هو . الطريق

الممتد والاشجار العارية .. والقرع الحقة ..

انه منذ اربعين يوما لم يذق دفء الحمام . « سكينة » زوجته هي الدار وهو دائم في الخيمة بين عمال الترحيلة ... رجل خلف رجل على مراش من القش . كانوا يضحكون ويتبادلون المكت وتذكر كل منهم مباهجه بزوجته . وتتلاحم النار في الحطب جسمهم حتى

تجيء فيجيء كل شيء في المكان .. حتى الارواح حتى الاحلام . فكم مرة استيقظ على صوت السيل هذا وهو يدمدم على الشيطان ... الذي طالما نقل اليه عبر الاحلام في شبابه نساء لا يعرف صورهن ، ثم حرمه من حنان سكينة طوال ليالي الغيبة ... وقد كان مشتاقا اليها ..

واحس بوهج غير عادي يسري في اوصاله . شعر برغبة في عمل ما يؤكد الحياة .. يؤكد الحياة فيه هو ... في هذه اللحظة ... ونوا .

شعر انه محتاج الى ان يأكل او ان يشرب او يدخن ... على الاقل . لكنه تذكر انه لا يحمل طعاما منذ اكلت الليالي الاربعون كل نقوده ورواده وقواه . فلم يبق معه حتى اجرة القطار . غير انه احس بقوة اعظم من المألوف . فعندما يعمل سيجد سكينة جالسة امام الكانون... لا شك في ذلك... فاليوم هو يوم السوق وعند آذان العصر

سيطرق عليها الباب فجاة ... بتلك الجلفة الحديدية الكبيرة التي تشبه الخلخال ...

وتبسم ، وجرى ريقه ... تحلب بمرارة كمن شم رائحة الشواء وحرك يد الماس ليبعث الصوت المدمي . انه قريب من صوت الشباك حين تحركه الريح وهو جالس مع سكينة ... ما اجمل وهج النار على وجهها الشاحب . انه يكسو ملمحها حمرة نود أن تدوم . غير انه في سبيلها يقطع الآن كل هذه الكيلومترات مشيا على قدميه . لقد نزل

الصدر ذات يوم ملابس لها منديلا من الحرير . كبيرا تعصب به رأسها . من اجل ذلك تلمت الحسية فلم يجد مايكفيه. غير أنه لم يلبث الا قليلا حتى عاد اليه اقتناعه بان انسانية حلوة من وجهها الذي يشبه حتى الآن وجوه الاطفال سيبقيه كل المتاعب ...

وعاد بهز يد الفأس ليسمع الصوت المعدني ... « ترن .. طن .. ترن .. طن » ماحد نفسا عميقا .. « آه .. هانت . اما الآن فى نصف الطريق »

ومع تنهد الراحة دخل الى مخيلته صوت جديد من خلال حركة الفأس هو صوت طشت النحاس حين تلقى به زوجته ابام رجليه وتصب عليه ماء ساخنا ... يضع فيه قدميه فيعبر البخار وجهه وتوقظ الحرارة قدميه المتعبتين وتتمشى يد سكينة على ساقه لتغسل عنها الطين والتعب ويغمض عينيه ويسند ظهره ورأسه الى الجدار فى استسلام من يلقى بالهموم .. والرمل .. والتعب .. فى وهلة سعيدة ..

لكنه فجأة افاق من هذه الاحلام .. احس ببرد طارىء يسرى فى بدنه .. ولم يكن قد مضى بعد الى أن الشمس قد غابت . هناك سحاب مصفر ثقيل لا يعرف العواطف طبيعى مصدر الضوء . وبلا قصد وجد نفسه يرفع رأسه فى السماء كأنه أراد أن يكتشف عنها السحاب كما يفعل عادة مرعوة اللون . وضحك وحده فى الخلاء وتطير فجأة حمرة الحقول وتتحول الى دكنة بعد أن انسحبت أشعة الشمس . واندمج تلقه فجأة الى رجليه .. احس أنه يشد اعصابا ويعدو اعيانا .. وتلمت فجأة أن بطن به الفأس الطنون ... كسارق او مجنون .. فعاد يمشي الهوينا ... وهز يد الفأس لترسل اليه لحظات الساحر من خلال المعدن الصلب الذى كساه الصدأ ...

وما لبث أن سأل نفسه « هل تحس سكينة الآن وهى فى الدار بما اقاسيه على الطريق ؟ » واجاب عن سؤاله بابتسامة . وهز رأسه مؤمنا على افكاره التى تداخل رأسه انها تحبه ... حقيقة ان جمالها مصدر عذاب له . فلو لم تكن جميلة ما ترك مزرعة كامل جمعة التى كان يعمل فيها اجيرا دائما ... لكنه شم رائحة الخطر ملكن يمنع سكينة من حقول كامل كان لا بد أن يخرج منها . واتخذ هذا القرار فى ليلة سوداء شب العراك فيما بينه وبين سكينة عدة ساعات بعد اقل من سنة .. وريح الخماسين تزمزع مصراع الشباك فتزعزع المفصلة « هكذا » ...

واخذ يهز يد الفأس فيسمع الصرير المعدني . وتغير جوه النفسي كما تغير الجو الخارجي . وبدا سحاب داكن يمتد من الشمال الغربي . ورحبت حمرة الحقول بتلك الليلة تتمايلت فى انتظار الشرب وشعر هو بالخوف .. فجأة .. كأن هذه الريح ستهب فتحطب سكينة او تمزقه بطوماتها ..

وتوقف عن السير وجلس فى تعريشة من الحطب على رأس حقل لكى يستريح .. شعر بالعناء عندما جلس .. وكان الهواء يعابث الاوراق الجافة الباقية فى اعواد الحطب فيرسل صوتا خشنا . ومد ساقيه وتأوه .. « لو لم أشتر المنديل لسكينة لارحت نفسى من هذا العذاب » لكن ... ما أجمل لون وجهها

تحت منديل طرابيشي . انه اقرب ماليكون الى وجوه الملك في صباح العيد !!

وكان متاعه امامه . الفاس والجردل .. كلما كانهما يطران اليه نظره ويديه ... استقاؤه في القحط ومدته ومصدر رزقه ... و ... واصطحع .. كل المكل مسوى ممهدا .. سواء اسان ما قد رقد فيه من قبل . « ربما وحده .. وربما مع احد » ... وتمسم ... وسحب مدته الى الايلم لتكون في مامن معه في هذا المكن .. وخيل اليه انه يرى حيوانات اليفة في الفاس والجردل .. كانهما كائنات حية لا تنطق . فيها مودة صموت من قبيل آخر غير مماعاة سكينة .

وهنا تحسس جيبه فخشخشت الورقة التي لف فيها المنديل ... كانت في جيب الصداري .. تحت ابطه الايسر .. فجعل يضغط ويضغط واغمض عينيه .. وخيل اليه انه يضغط على راس زوجته وانها تناوه في استرداده . وهناك دفء يبعث من بطن الفرن مع رائحة خبيز .. « آه .. شيء لذيذ ان ... شعير .. والدفء .. بعد ... مشوار طويل .

سمع صحة معدنية كانت صادرة من (الجردل) حينما مد ساقه فاصابته فقرح مستقط ... وعندئذ استيقظ من النوم ...

وجد نفسه في مكانه من تعريشة الصليب . فلفحته الدفء سلم .. وعلم انه في احضان سكينة . ومد رجله فاستقط (الجردل) فاستقط . فكرة ادخلته في حلم ... وخيطة اخرجته منه ... كذلك شان المتعبين !!

غير ان الدفء ملا بدنه كانه متاع في اليم . كان الجو قاتما والسماء تنذر بالمطر والنهار قارب ان ينتهي . فانقض وتمطى وعلق الجردل في يد الفاس وحملها على كتفه وسار لا يفكر في شيء الا انه يمشي وكان النوم قد امده بقوة جديدة ولو انه احس بالجوع .

ولاحت له مداخل القرية ... انه يعرفها .. هذا هو نور « الكلوب » يسطع من وراء نوافذ كانل جميعة المعلقة ... « الحمار ... كان يراود على سكينة ... سب عدابي » وتفقد . وسره ان يدخل في الظلام فقد تاخر عن بقية الانفار لانه مرض اربعة ايام معوضها في مرقة اخرى ... وذلك على كل حال خير من استراد النقود ... « النقود !! » وهو كلمة الحرة التي لا تحمل شيئا لكن ذلك ادى الى سماع الصوت المعدني الذي ملا احساسه طول الطريق !!

وحرك حلقة الباب الحديدية التي تشبه الخلخال في رفق فارسلت دقات قلقة . واتاه صوت سكينة من الداخل يقول « مين » وفتحت الباب فعرضت جسمه الطويل الذي سد فرجة الباب فهتفت كانها تداري سرا « سليمان ... حمد الله على السلامة » .. محرر يديه ثم احتضنها ...

وكانت خطى الليل تتقدم ... والدفء في القاعة ممزوج برائحة الدخن والخبز واللحم والبصل ... وفي الركن تحت حبالة الملابس اطفال ثلاثة يتكورين . وكان سليمان يحكي لسكينة عن كل ما لاقى ... وتحسس المنديل الحديد على راسها ... ذلك المنديل الذي اشتراه بثمن تذكرة السكة الحديد ... وكان

على الفرن وعاء من النحاس فيه ماء ساخن ينتظر حتى الصباح .. واخيرا ضحك سليمان قائلا لسكينة وهو يستسلم للنوم الحقيقي «كنت واحشاني يا سكينة » ..

ماذا بها تبكي . مطار النوم من عينيه وأخذ يسألها من السبب فاعتصمت بالصمت طبا الح وثار قالت له

ـ امـــل ... آ ... كلل حمعة سال عليك ..

مجف ريقه وهمس سائلا

ـ على انا ؟! والسبب ؟!

ـ يمكن تكون تحت تشتغل مى ارسه ... يمكن ..

تعلق الكلام بشفتيها لفترة كأنه تحد ثم رد ثائرا محسورا :

ـ انا ؟! .. طبعا غير ممكن ..

فأطرقت تبكي وقالت بعد قليل

ـ طيب .. وليه تاخـرت اربعـة ايام زيادة ؟

ـ انت عارفه السبب يا سكينه ..

فقالت من خلال دموعها وشـــهقاتها مطربته لا يمكن أن يصل الى اعماقهـا سليمان الحكيم لا سليمان الروح .

ـ انا كنت عارفة انك راجع راجع الرجوع عند كامل جمعة ... وعارفه ان الشغل ضرورى .. آ .. آ .. مهمت يا سليمان ..

فشهق الرجل . كاد نفسه ينقطع .. فقد ادرك ان سكينه قد قضت له أخر اربعين يوما اخرى من المقاول . وهـذا هو سر رائحة الخبيز .. فقد جهزت « الزوادة » وهذا هو السر ايضا فى اللحم والدهن ورائحة الفوايل ... وليلة واحدة قضيتها فى الدار ... كان من الممكن ان تكون ليالى اربع لو لم يتأخر هو هناك ...

وساد الصمت لكن سليمان ماكث ان نهض حانقا وقال بلهجة حماسية كان لا بد منها لمن أخذ على خوض معركة

ـ سكينة .. انا مسافر ... حتى الشرف وسقط كامل جمعة ..